

عنوان البرنامج: مدخل لدراسة التصوف
الوحدة الثالثة: أصول التقويم الداخلي للتصوف
الدرس الثاني: فعالية التقويم الذاتي في التصحيح المعرفي
اسم المحاضر: الدكتور عبد الصمد غازي

فعالية التقويم الذاتي في التصحيح المعرفي

من المعلوم أن الفكر الإسلامي عرف اتجاهات مختلفة في نقد التصوف بعضها من داخله لتصحيح مسار الفكر الصوفي والتنبيه على غلطات بعض الصوفية، إذ يتعين استلهاهم اتجاه النقد الذاتي لدى بعض أرباب التصوف حيث يمكن إدراجها فيما يمكن تسميته باتجاه التقويم الداخلي للتصوف، والذي رام أربابه من خلاله تنقية الطريق الصوفي من دعاوى الدخلاء والأدعياء، والتحذير من اتباعهم، وتثيت دعائم الممارسة الأصيلة في مجتمع تتجاذبه تيارات فكرية وسلوكية عديدة منها ما هو متصل بالفقه، ومنها ما له ارتباط بالكلام وغيرهما.

ولعل السراج الطوسي¹ أبرز من اهتم بهذا الباب حيث أفرد طرفا غير يسير من كتابه **اللمع** بين فيه أسس ومقومات الطريق الصوفي، ولئن كان الطوسي واضح أساس هذا المنهج النقدي، فإنه لم يكن فارس هذا الميدان وحده، إذ جاء بعده أبو عبد الرحمن السلمي فكتب رسالة مفردة في غلطات الصوفية كان جل ما فيها -إضافة إلى الفصل الذي رد فيه على القائلين بالحلل- صدى لما ذكره السراج، ثم تتابعت الكتابات، فكانت إسهامات القشيري في رسالته، والهجويري² في كشف المحجوب، وكذا الغزالي

1. أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي، كان شيخ الصوفية، على طريقة السنة. الملقب بطاووس الفقراء، وصاحب كتاب «اللمع»، وهو من أكثر المراجع وفاء بعلوم الصوفية، ومذهبههم، وأخبارهم وأشعارهم ومسائلهم، وأجوبتهم، ومقاماتهم وأحوالهم، وما انفردوا به من الإشارات اللطيفة والعبارات الفصيحة، والألفاظ المشكلة المنبئة عن حقائقهم، والدالة على مواجيدهم وأصولهم. توفي سنة 378 هـ. الموسوعة الصوفية، لعبد المنعم الحفني، ط5: 2006 م، مكتبة مدبولي، القاهرة - مصر، ص 334. الأعلام، لخير الدين الزركلي الدمشقي، ط15: 2002 م، دار العلم للملايين. 104/4.

2. أبو الحسن علي بن عثمان بن علي، الغزنوي الجلاي الهجويري، صاحب كتاب «كشف المحجوب»، ويعد أقدم الكتب باللغة الفارسية في التصوف وأشهرها، ولسنا نعرف الكثير عن الهجويري، ومن المحتمل أنه توفي بين سنتي 465 و 469 هـ في لاهور، وقبره بها يزار. الموسوعة الصوفية، ص 724.

في كثير من مصنفاته، بل وسرت هذه الروح إلى عصرنا فوجدنا بعض المحققين من مشايخ الطرق يؤكدون حرصهم على التزام الكتاب والسنة، ويذكرون أن من يخالف هذا فالصوفية منه براء.

لقد كان الصوفية العلماء منذ البدايات الأولى لتقعيد علم التصوف وتدوين أصوله ومبادئه على غرار العلوم الإسلامية الأخرى، واعين بالمزالق التي يمكن أن تعترض هذا المسلك التربوي والمعرفي، واضعين الحدود الفاصلة بين الدعوة والدعوى في المجال الروحي.

ولعل السمة العامة التي طبعت الخطاب التقويمي لأهل الاعتقاد تتلخص في لزوم حمى التسليم بخصوص ما سمي بمتأخري الصوفية وسلوك منهج التوقف عند المشكل من كلامهم وخطابهم والتنزه عن التكفير، ليخرج الخلاف بذلك من دائرة المحاكمات العقديّة إلى نطاق التسليم والتوقف العلميين، فالمحققون من الصوفية كانوا أشد الناس حرصاً على تمهيد طريقهم، وتمييز نهجهم عن تلبيس الأدعياء، وتوضيح المجمع عليه من أصول وقواعد السير السليم والقويم.

إن هذا اللون من البناء والنقد التقويمي أو الذاتي هو الذي سار عليه رواد الصوفية الأوائل ومن سار على نهجهم من أهلهم الذين تعهدوا المسلك الروحي والأخلاقي للأمة بالرعاية، فرسموا الحدود، ووضعوا التعاريف، ومهدوا الأصول وسهلوا القواعد، ورصدوا في نفس الآن الغلطات، واستبانوا مداخلها، فنبهوا ونصحوا، وحذروا منها قبل غيرهم من أهل الانتقاد الذين أخذوا بها وعمموا فلم ينصفوا، فبادروا إلى التكفير ولم يتوقفوا بله يسلموا.